سابعاً: المسؤولية

الحديث الثامن والعشرون: الراعي يُسأل عن رعيته

عن يونس عن الزهري قال: أخبرنا سالم بن عبد الله، عن ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده، ومسؤول عن رعيته** ـ قال: وحسبت أن قد قال: **والرجل راع في مال أبيه، ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته**».

- تخريج الحديث:

- صحيح البخاري بحاشية السندي م١، ج١، باب الجمعة في القرى والمدن، ص ١٦٠، ط دار المنار، فتح الباري م٢، كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن ص ٣٨٠، باب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، كتاب الوصايا.

- صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢، كتاب الإمارة ـ فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق، ص ٢١٣.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٢، ص ١٢١.

- الآداب لأبي بكر أحمد البيهقي، باب الراعي يُسأل عن رعيته، ص ٧٢.

- المعاني اللغوية والبلاغية:

رَعَى رِعَايةً الأميرُ رَعِيَّتَهُ: ساسها وتدبر شؤونها.

ورَعَى الأمرَ: حفظه.

الرَّعِيَّةِ: الجمع رَعَايَا: القوم، عامة الناس الذين عليهم راعٍ.

رعية ورعايا الملك : الخاضعون لأوامره .

سَأَلَ : طلب ، أَسْأَلَ سُؤْلَهُ وسُؤْلَتَهُ ومَسأَلَتَهُ : قضى حاجته .

المَسْؤُوليَّة : ما يكون به الإنسان مسؤولاً ومطالبًا عن أمورٍ، أو أفعالٍ أتاها .

الإمام : أي ذو الخلافة العظمى ومثله سائرُ ولاة الأمور.

أهلـه : يطلق الأهل ويـراد به زوجـة الـرجل أوّلاً. كقـول أسامـة في حـديث الإفك (أهلك يـا رسول الله) ، والأهل كـذلك تطلق على من تلزمـه نفقته شرعًـا كقوله تعالى : ﴿**إن ابني من أهلي**﴾ ، وفي قصة أيوب ﴿**ووهبنا له أهله**﴾ وكانوا زوجته وولده .

والمطلـوب أن يكون كل واحـد تحت رعايـة من يـرعاه ويسأل عنـه في الدنيـا والآخرة .

- المعنى العام:

إن من نعم الله تعالى على البشرية أنه كـرمها بالعقل والإدراك والقدرة والإرادة وحملها بالمسؤولية والأمانة ، وارتفاع الإنسـان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والمسؤولية .

وإن من أبرز مميزات هـذا الدين أنه وزع المسؤولية توزيعًـا دقيقًا لتنظيم الحياة الاجتماعيـة ومحاسبـة المسؤولين والمكلفين كـل حسب مهمته وواجبـاتـه ، فبـدأ بالإمام . «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته» ، والإمام هو المسؤول الأول في الدولة الإسلامية ، وقد أوجب الإسلام عليه أن يقوم بواجبات تمثيل الأمـة والوكالة عنها ، وفي مقـابل ذلك أوجب الإسلام على الأمة تجاهه بعض الواجبات هي كالحقـوق له عليهم ؛ لأن كل واجب لا بد أن يقابله حق والعكس .

ونظـرًا لأن هذه المسـؤوليـة عظيمـة والأمانـة ثقيلـة، فقـد حدد العلماء هـذه المسؤولية والتي تقع على كاهل الإمام وهو يُسأل عنها. وقد حدد الماوردي عشرة واجبات رأى أن الإمام ملزم بأدائها، ووافقه على ذلك معظم العلماء الآخرين:

١ - حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة.

٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم حتى تظهر النصفة.

٣ - حمايـة البيضـة والذب عن الحوزة ليتصرف النـاس في المعـايش وينتشروا في الأسفار آمنين.

٤ - إقـامـة الحدود لتصـان محارم الله عن الانتهـاك وتحفظ حقـوق عبـاده من الإتلاف والاستهلاك.

٥ - تحصين الثغور بـالعدة المانعـة والقوة الـدافعة حتـى لا يظفر الأعـداء بثغرة ينتهكون بها محرما، ويسفكون فيها دما لمسلم أو معاهد.

٦ - جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

٧ - جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصًّا واجتهادًا من غير عسف.

٨ - تقـديـر العطـاء ومـا يستحق في بيت المال من غير سرف، ولا تقصير فيـه ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

٩ - استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال لتكون الأعمال مضبوطة والأموال محفوظة.

١٠ - أن يبـاشر بنفسه مشـارفة الأمـور وتفحص الأحوال ليهتم بسيـاسة الأمـة وحراسـة الملة، ولا يعـول على التفويض تشاغـلاً بلذة، أو عبـادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، وقد قال تعالى: ﴿**يـا داود إنـا جعلنـاك**

خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﷻ [1]. فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، وقد قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» [2].

ومسؤولية الإمام مسؤولية ضخمة وأمانة ثقيلة، قال النبى ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» رواه الحاكم في صحيحه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين».

فيجب البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة، ومن أمراء الأجناد، ومقدم العساكر والكبار، وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين [3]، والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة، والمؤذنين، والمقرئين، والمعلمين، وأمراء الحج، والعيون الذين هم القصاد، وخزائن الأموال، وحراس الحصون، ونقباء العساكر، وعرفاء القبائل والأسواق، ورؤساء القرى.

فيجب على كل من ولي شيئًا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه.

---

(١) سورة ص: ٢٦.

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ص ١٨.

(٣) الشادين: جمع شاد، ووظيفته: استخلاص ما يتقرر في الديوان على من يعسر استخلاصه منه، أشبه بعمل المحضر الآن.

فإن عـدل عن الحق الأصلح إلى غيره لأجل قـرابـة بينهما، أو ولاء عتاقـة، أو صـداقة، أو مـوافقة في بلـد، أو مذهب، أو جنس كـالعربيـة والفارسيـة، أو الرشوة يأخـذها منه من مال، أو منفعـة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحـق، أو عداوة بينهما، فقد خـان الله ورسولـه والمؤمنين، ودخل فيما نهى عنه في قولـه تعالى: ﴿**يا أيها الـذين آمنوا لا تخونـوا الله والرسـول وتخونوا أمـاناتكم وأنتم تعلمـون**﴾ (١)، ﴿**واعلمـوا أنما أموالكم وأولادكم فتنـة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ (٢). فإن الرجل لحبـه لولـده، أو لعتيقه قد يـؤثره في بعض الولايـات، أو يعطيه مـا لا يستحقه أو محابـاة من يداهنـه في بعض الـولايات، فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته.

وقد دلت سنة رسـول الله ﷺ على أن الولاية أمانـة يجب أداؤها في مواضع مثل ما تقـدم، ومثل قوله لأبي ذر ـ رضي الله عنـه ـ في الإمـارة: «إنها أمانـة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم.

وروى البخاري في صحيحـه عن أبي هريـرة أن النبي ﷺ قال: «إذا ضيعت الأمانـة فانتظر السـاعة». وقد أجمع المسلمـون على معنى هذا، فإن وصي اليتيم وناظر الوقف ووكيل الرجل في مـاله عليه أن يتصرف له بالأصلح، فالأصلح كما قال الله: ﴿**ولا تقربوا مـال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾ (٣). ولم يقل إلا بالتي هي حسنة، وذلك لأن الـوالي راع على الناس بمنزلـة راعي الغنم، كما قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـه، فالإمام الذي على النـاس راع وهو مسؤول عن رعيته... إلخ».

---

(١) سورة الأنفال: ٢٧.

(٢) سورة الأنفال: ٢٨.

(٣) سورة الإسراء: ٣٤.

وقال ﷺ: «ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة» رواه مسلم (١).

«والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته»، فقد عني الإسلام بالأسرة عناية خاصة، وجعل منها أساس المجتمع، وحتى يتحقق هدف الإسلام في بناء الأسرة على أساس متين، فقد وزع المسؤولية والأعمال تنظيماً جميلاً ينتظم به شأن البيت من جهة، كما ينتظم به العمل خارجه من جهة أخرى، مع تحديد الواجبات والمسؤوليات على كل من الرجل والمرأة.

فالرجل راع على أهل بيته، فمن أوجب واجباته أن يسعى ويكد وينهض بالكسب، وما يحتاج إليه البيت من مال ونفقة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ (٢)، أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها، ومؤدبها إذا اعوجت ﴿**بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾، أي لأن الرجال أفضل من النساء، ﴿**وبما أنفقوا من أموالهم**﴾، أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها كما قال الله تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله (٣).

---

(١) راجع كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية. القسم الأول، تولية الأصلح باختصار وتصرف.

(٢) سورة النساء: ٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير، م١، سورة النساء ص ٧٤٢ (ضبط حسين بن إبراهيم زهران).

والمنهج الرباني يراعي في هذه المسؤولية الفطرة والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات، كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة، والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأة لها، فقوامة الرجل ومسؤوليته مقدمة؛ لأن الله تعالى زوده فيما زود به من الخصائص بالخشونة والصلابة واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة لتدبير المعاش وسائر التكاليف في الحياة؛ لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدم وخصائصه الفطرية تجعله أقدر على القوامة، وأفضل في مجالها، كما أن تكليفه بالإنفاق وهو فرع من توزيع المسؤوليات يجعله بدوره أولى بالقوامة؛ لأن تدبير المعاش للأسرة ومن فيها داخل في هذه القوامة، والإشراف على تصرف المال فيها أقرب إلى طبيعته ووظيفته.

ومن أبرز مسؤوليات الرجل في أهله أن يبحث عن المرأة الصالحة؛ لأن الإسلام دين أسرة، ومن ثم يقرر طبيعة المؤمن في أسرته وواجبه في بيته؛ لأن البيت المسلم قلعة من قلاع التربية، ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها، حصينة في ذاتها، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها. عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»(١).

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية يلقي المسؤولية على الرجل. قال تعالى: ﴿**وعاشروهن بالمعروف فإن**

---

(١) سنن النسائي، شرح السيوطي وحاشية السندي، ج٦، ص ٦٨.

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾ [1]، فيحمل الرجال مسؤولية التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة ﴿**فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا**﴾ فما يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرًا، وأن الله يدخر لهم هذا الخير فلا يجوز أن يقتلوه. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» متفق عليه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» رواه أحمد ومسلم [2].

والإسلام يبين معالم اختيار الزوجة ويوضح معادنها. عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أي النساء خير؟ قال: التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره» [3].

ومن مسؤولية الرجل أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله وزوجته؛ لأن البيت المسلم هو نواة الجماعة، ونواة البيئة الإسلامية، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي (المجتمع الإسلامي)، ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال والنساء، وكان ينظم البيوت ويقيمها على المنهاج الإسلامي، وكان يحمل المؤمنين مسؤولية أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ [4].

---

(١) سورة النساء: الآية (١٩).

(٢) نيل الأوطار، للشوكاني، ج٦، (باب إحسان العشرة وبيان حق الزوجين).

(٣) سنن النسائي، ج٦، ص ٦٨.

(٤) سورة التحريم: ٦.

«والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتهـا»، وهنا أمر ينبغي أن يدركه المربون والـدعاة من المسلمين والمسلمات. إن أول الجهـد ينبغي أن يوجـه للبيت ثم إلى الزوجـة، إلى الأم، ثم إلى الأولاد وإلى الأهل بعامـة، ويجب الاهتمام البالغ بإيجاد التفـاهم بين الـزوج والـزوجـة لإنشـاء البيت المسلم ولتربيـة الأولاد. والمسؤولية الأساسية تقع في هذا الميدان على المرأة الصالحة، ولا يتأتى هذا إلا إذا أدركت المرأة مكانة الـزوج وأهميته من الناحية الشرعيـة. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجـد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظم الله من حقه عليها». وعن أبي هريرة أيضًـا: «لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنـه، ولا تأذن في بيته وهو شـاهد ومـا أنفقت عن كسبه من غير أمـره فإن نصف أجره له». وهذا الإنفاق من كسبـه حمله بعض أهل العلم على إنفاقها مما أعطاها في نفقتها. وبذلك أفتى أبو هريرة [1].

وهذه الرعاية عامة للزوج في جميع أحواله من غير استثناء. قال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله: تنـازع العلماء هل عليهـا أن تخدمـه في مثل فـراش المنـزل ومناولـة الطعام والشراب والخبز والطحن، وإطعام لمماليكـه وبهائمه مثل علف دابته ونحو ذلك...

ومنهم من قـال تجب الخدمـة بالمعـروف وهـذا هو الصـواب [2]. وفي كتب السيرة والحديث أمثلـة جميلـة من حـالـة نسـاء الصحـابـة، وكيف كن يخدمن أزواجهن ويقمن بما أوجب الله تعـالى عليهن من حقـوقهم. فعن أسماء بنت أبي بكر قـالت: تزوجني الـزبير وما له في الأرض من مـال ولا مملوك، ولا شيء غير فـرسه، قـالت: فكنت أعلف فرسـه، وأكفيه مـؤنته، وأسـوسه، وأدق النـوى

(١) الآداب، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. باب مراعاة حق الأزواج، ص ٦٢.
(٢) مجموع الفتاوى، ج ٣٤، ص ٩٠.

لناضحه، وأعلف، وأستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ. قالت: فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فدعاني ثم قال: أخ، أخ ليحملني خلفه، قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، قالت: وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى وجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب معه، فاستحييت وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى أشد علي من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني[1].

وبعد فهذه صورة حيّة من الحياة البيتية. صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم، وصورة للمرأة المسلمة وأنها كيف فهمت معاني الزوجية ومعاني المسؤولية والرعاية. وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به، فأدى كل واحد منهم واجبه نحو الآخر من باب المودة والرحمة، ومن باب السعادة والهناء، وليس من باب القضاء والأنظمة ليبقى البيت مهيأ للتربية ومعدًّا لتحقيق معاني الخلافة. وفي ظلال هذا الحديث الذي يشتمل على أكثر من معنى يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية، والتوجيه، والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار. وتنقسم المسؤولية بين الرجل والمرأة كما تقع المسؤولية الأخرى على عاتق الهيئات والمدارس لتربية الجيل تربية إسلامية شاملة، وتبدأ هذه التربية بين رعاية الأم وتوجيه الأب. فالأم تربي

---

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل، ج٦، ص ٣٤٧.

أولادها الصغار بين الحنان والرعاية الكاملة، وبين الدعابة والابتسامة وتقديم نماذج جميلة تلائم البراعم الصغيرة من الخلق الحسن، ومراعاة الآداب. وإذا ما نما الأولاد في هذا الجو الحاني يبدأ الأب يشارك مشاركة إيجابية في تحمل مسؤولية التربية. إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله وفي أولاده تبعة ثقيلة رهيبة.

والأولاد في سن مبكر يحتاجون إلى الرحمة والحنان؛ أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قبل الحسن بن علي والأقرع بن جابر التميمي عنده، فقال الأقرع بن جابر: يا رسول الله إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم إنسانًا قط، قال: فنظر إليه رسول الله ﷺ قائلاً: من لا يَرحم لا يُرحم». والحديث لفتة تربوية جميلة يعطينا نموذجًا نبويًّا كريماً لتربية البراعم الصغيرة.

عن أسامة بن زَيد قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأيمن، ثم يضمنا، ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما». وكذلك وردت أحاديث ترسم لنا ملامح واضحة لتربية البنات بصفة خاصة؛ عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى يبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهذي - وضم إصبعيه».

عن أيوب بن بشير الأنصاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون لأحد ثلاث بنات، أو بنتان، أو أختان، فيتقي الله فيهن، ويحسن إليهن إلا دخل الجنة»(١).

وهذه التربية وأجرها وثوابها منقسم بين المرأة والزوج، وعليهما أن يقيا أنفسهما وأولادهما من هذه النار، وعليهما أن ينتبها أن لا تفوت فرصة التربية قبل فوات الأوان. وهو ﷺ قد أشار إلى هذه الفرص المطلوبة وحدد الزمن والعمر الملائم

---

(١) راجع الآداب، للبيهقي، باب في رحمة الأولاد وتقبيلهم والإحسان إليهم، ص ٤٠ - ٤٩.

لـــــذلـك. عن سبرة بن مصعب الجهني قال: قال النبي ﷺ: «مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قـال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبنـاء سبع سنين، واضربـوه عليهـا وهم أبنـاء عشر، وفـرقـوا بينهم في المضاجع»(١).

ومن هـذه المسـؤوليـة المشتركة بـر الـوالـدين. ﴿**ووصينـا الإنسـان بوالـديـه إحسانًا**﴾(٢). وهي من المسؤوليات الشاملة في البيت والأهل.

فصفة الوالـدية تقتضي هذا الإحسان بـذاتها بدون حاجة إلى أي صفـة أخرى وهي وصيـة صـادرة من رب العـالمين، وتتكـرر هـذه الـوصيـة في القـرآن وفي الحديث، الـوصية بـالإحسان بالـوالديـن، ولا ترد وصية الـوالديـن بالأولاد إلا نادرة؛ ذلك أن الفطـرة وحدهـا تتكفل برعـاية الوالـدين للأولاد رعـاية تلقـائية مندفعـة بذاتها لا تحتـاج إلى مثير. ومن هذه الوصيـة: «والرجل راع في مـال أبيه ومسؤول عـن رعيته»، ومن أجمل أنـواع الإحسان نحـو الوالديـن استثمار أموالهما ورعـايـة أمـورهما المالية والاجتماعيـة وتـربيـة صغـارهما، وهم الأشقـاء البراعم الصغيرة؛ لأن الإسلام يجعـل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه، والمحضـن الذي تدرج فيه الفراخ الخضر، وتكبر وتتلقى رصيـدها من الحب والتعاون، والتكافل والبناء، والمشاركة الإيجابية من الأخ الكبير وزوجته وأولاده.

«والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»: واتخاذ الخادم في البيوت أمر معروف عند الأنبياء والعلماء والصـالحين. قال تعالى: ﴿**قالت إحداهما يا أبت**

---

(١) مختصر سنن أبي داود، للحافظ المنذري، ج١، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ص ٢٧٠.
(٢) سورة الأحقاف: ؟؟؟.

استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [1]. فمراعاة الأمانة والقوة مطلوبة في استخدام الرجل والمرأة، فها هي بنت شعيب رأت من أمانة موسى ـ عليه السلام ـ وعفته، فتشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك، وهو قوي على العمل أمين على المال، وأمين على ما سواه. وقد استخدم أبو بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ خادمًا، وآخر لبنته أسماء، كما سبق واستخدم ﷺ خادمًا، وقدم آخر لبنته فاطمة، إذا فهو أمر مشروع، ورفع الإسلام مكانة الخادم. وكان المجتمع المدني في عهد الرسول ﷺ مليئًا بالخدم والرقيق والمماليك، وكانوا يشكلون نسبة معلومة في عدد السكان، ومن هنا كان عناية الإسلام بهم كبيرة من الناحية التربوية، ومن الناحية الاجتماعية، وظل هذا الدين الرباني يعالج مشاكلهم ويرفع مكانتهم ومعنوياتهم، حتى يكونوا لينة صالحة في بناء هذا المجتمع الأخوي الخليط. عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل ـ عليه السلام ـ يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه يورثه، وما زال يوصيني بالمملوك، حتى ظننت أنه يضرب له أجلاً، أو وقتًا إذا بلغه عتقه».

عن مغيرة عن أم موسى عن علي قال: كان آخر كلام رسول ﷺ: «الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وقد وردت أحاديث كثيرة ترفع مكانة الخادم ومعنويته ومنها: حدثنا شعبة، حدثنا واصل الأحدب، قال: سمعت المعرور بن سويد، يقول: «رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك؟ فقال: إنني سابيت رجلاً فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: أعيَّرته بأمه؟ قلت: نعم. ثم قال: إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله أيديكم، فمن كان أخوه

---

(١) سورة القصص: ٢٦.

تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه» (١).

وعن أبي هريرة رضي ـ الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامًا، ثم جاءه به وقد ولي حره ودخانه، فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهًا، فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين».

وبعد هذه المعاملة الإنسانية الكريمة الأخوية المثالية طلب الإسلام بمقابل ذلك من الخادم أن يكون أمينًا على مال سيده في استثماره وحفظه وتصرفه، وأن يراعي في ذلك معاني الأخوة والوفاء والأمانة، ويعتبر أن المال ماله، وأنه أحق الناس حراسة على هذا المال، وإلى هذا يشير ﷺ.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة الله: فله أجره مرتين» أخرجه البخاري ومسلم.

- فقه الحديث:

١ - «والرجل راع في أهله» ومن هنا تجب عليه كسوتها بإجماع أهل العلم فيفرض لها على قدر كفايتها على قدر يسرهما وعسرهما. وما جرت عادة أمثالهما من الكسوة.

٢ - وعليه لها ما تحتاج إليه للنوم من الفراش واللحاف والوسادة كل حسب عادته.

٣ - ويجب لها مسكن بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أسكنوهن من حيث سكنتم**﴾، ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾. ومن المعروف أن يسكنها في مسكن ويكون المسكن على قدر يسارهما وإعسارهما. فإن كانت المرأة ممن لا تخدم

---

(١) الآداب للبيهقي، باب الإحسان إلى المماليك، ص ٦٥ ـ ٦٦.

نفسها لكونها من ذوي الأقدار أو مريضة وجب لها خادم. ومن العشرة بالمعروف أن يقيم لها خادمًا.

٤ - وعلى الزوج نفقة الخادم ومؤنته من الكسوة.

٥ - والزوج إذا لم يدفع لامرأته ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو دفع إليها أقل من كفايتها، فلها أن تأخذ من ماله الواجب، أو تمامه بإذنه وبغير إذنه بدليل قول النبي ﷺ لهند: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، وهذا إذن لها بالأخذ من ماله بغير إذنه بقدر كفايتها وكفاية ولده [١].

٦ - ويجب على الرجل نفقة مملوكه مما لا غنى له عنه وكسوته؛ لما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق» متفق عليه [٢].

- ما يستفاد من الحديث:

١ - من واجبات الإمام أن يختار المسؤولين عن المهمات اختيارًا ملائمًا يراعي فيه الأمانة والصدق والإخلاص.

٢ - وعلى الإنسان المسلم أن يتحرى في اختيار الزوجة الصالحة، ويكون نصب عينيه وصية المصطفى ﷺ «فاظفر بذات الدين تربت يداك»، ﴿**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله**﴾.

فمن طبيعة المؤمنة الصالحة إدراك معاني المسؤولية وتقدير معاني الزوجية بحكم إيمانها وصلاحها. ومن طبيعة المؤمنة الصالحة أن تكون حافظة لحرمة الزواج المقدس بينها وبين زوجها في غيبته وبالأولى في حضوره.

---

(١) المغني لابن قدامة، ج٩، فصول في النفقة، راجع ص ٢٣٤ ـ ٢٥٩.
(٢) الكافي لابن قدامة، ج٣، باب نفقة المماليك، ص ٣٨٨.

٣ - والحديث يشير إلى تحمل مسؤولية خدمة الزوج وتربية الأولاد ورعايتهم، فالمرأة راعية في بيت بعلها؛ لأنها تمتاز بالرقة والعطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة.

٤ - والحديث يشير إلى المعاملة الحسنة نحو الأرقاء والخدم، حتى يصلوا إلى مستوى الأخوة وتحمل المسؤولية والأمانة في البيت وفي المال. ويعتبروا أنفسهم أحد أفراد هذه الأسرة، عليهم من واجبات البناء والتعمير مثل ما على بقية الأفراد.

الحديث التاسع والعشرون: العدل بين الرعية !

حدثنا شَيْبان بن فَرُّوخ حدثنا أبو الأَشْهَب، عن الحسن قال: عاد عبيد الله ابن زياد مَعْقِل بن يسار المُزَنِيَّ في مرضه الذي مات فيه. قال مَعْقِل: إني محدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، لو علمت أن لي حياة ما حدثتك. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة**».

- تخريج الحديث:

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٣، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ح٧١٥٠، ٧١٥١، ص ١٣٥، ١٣٦.

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ح ٢٢٧، (١٤٢)، ٢٢٨، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

ج١٢، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح٢١ ـ (١٤٢)، ٢٢، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

- سنن الدارمي، ج٢، كتاب الرقاق، باب في العدل بين الرعية. ح٢٧٩٦، ص ٤١٧.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٥، ص ٢٥ ـ ح٢٠٣١٢، ٢٠٣١٤.

- الراوي:

- معقل بن يسار المزني، المزني البصري ـ رضي الله عنه ـ من أهل بيعة الرضوان، له عن النبي ﷺ، وعن النعمان بن مقرن.

حدث عنه عمران بن حصين، مع تقدمه. والحسن البصري وأبو المليح بن أسامة، ومعاوية بن قرة المزني، وعلقمة بن عبد الله المزني وآخرون. قال محمد بن سعد: لاَ نعلم في الصحابة من يكنى أبا على سواه. مات بالبصرة في آخر خلافة معاوية [1].

- المعاني اللغوية:

رَعَى يَرعَىٰ رَعْيًا ورعاية ومَرْعىً، رعت الماشية الكلأ: سرحت فيه وأكلته.

- استرعى استرعاءً الماشيةَ: طلب أن يرعاها، واسترعاه ماشيته: طلب منه أن يرعاها له. ومنه المثل «من استرعى الذئب فقد ظلم» يضرب لمن يأتمن الخائن.

- قال ابن بطال هذا وعيد شديد على أئمة الجور، فمن ضيع من استرعاه الله، أو خانهم، أو ظلمهم؛ فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة. فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة ومعنى (حرم الله عليه الجنة)، أي أنفذ عليه الوعيد ولم يرض عنه المظلومين.

وقوله (وهو غاش) قيد للفعل مقصود بالذكر، يريد أن الله إنما ولاه على عباده ليديم لهم النصيحة، لا ليغشهم حتى يموت على ذلك.

- بين الراعي والرعية

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ [2].

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٥٧٦.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

النص القرآني يجعل طاعة الله أصلاً، وطاعة الرسول هي أصل كذلك بما أنه مرسل منه، ويجعل طاعة أولي الأمر في حدود المشروع المفروض من الله، وفي الصحيحين من حديث الأعمش «إنما الطاعة في المعروف» وفيهما من حديث القطان «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية»[1]. فإذا أمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة. عن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» [2].

وظل الإسلام يبين أهمية الأمير والمسؤول، ويوضح مدى صلاحيته في الحكم بين الناس لتكون الأمور معروفة والحدود معلومة، حتى تسير سفينة الحياة على هدى وبصيرة، وحتى يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا مثاليًا. كل واحد يعرف مدى مسؤوليته ويعرف أمانته، ويعرف كيف سيحاسب عليه في الدنيا والآخرة، ومن هنا أعطى الأمير حقه. عن ابن عباس، قال النبي ﷺ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية» [3].

وأعطى الإسلام للأمير أهميته وحمله مسؤولية الأمانة والنصح والإخلاص مع رعيته بكلمات واضحة، وبعبارات مثيرة. قال ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة. وبهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينًا على شريعة الله وسنة رسوله ﷺ، أمينًا على إيمانه وذنبه،

---

(١)، (٢) فتح الباري، ج١٣، كتاب الأحكام. باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ص ١٢١.

(٣) المصدر السابق.

أمينًا على نفسه وعقله، أمينًا على جماعته ورعيته، أمينًا على مصيره في الدنيا والآخرة. وهذا الحديث لقطة جميلة من لقطات الأمانة. ومعقل بن اليسار المزني صحابي جليل مشهور، مرض مرضًا خطيرًا، فظل يفكر كيف يؤدي أمانته من قول وفعل؟ وكيف يؤدي أمانة حديث رسول الله ﷺ إلى المسؤولين، وفي هذه اللحظة يدخل عليه عبيد الله بن زياد أمير البصرة في زمن معاوية فبلغ هذه الأمانة. وفي رواية لمسلم قال لـ (عبيد بن زياد) إني محدثك بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك به، يقول: « ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة». وفي قوله: «لو علمت أني بي حياة ما حدثتك» يحتمل أنه كان يخاف على نفسه قبل هذا الحال، ورأى وجوب تبليغ العلم الذي عنده، لئلا يكون مضيعًا له. والموقف يصور مدى أمانة الكلمة وأهميتها. قيل: سبب ذلك هو ما وصفه به (عبيد الله بن زياد) الحسن البصري من سفك الدماء. فكأنه كان يخشى بطشه، فلما نزل به الموت أراد أن يكف بذلك بعض شره عن المسلمين [1].

والحديث يوضح مدى مسؤولية الوالي ومدى أمانته، وقد ورد في ذلك أحاديث أخرى. وخصص ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كتابًا قيّمًا في الموضوع بعنوان: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وذكر فيه قول النبي ﷺ «من ولى من أمر المسلمين شيئًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين». رواه الحاكم في صحيحه. وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر، وروي ذلك عنه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَنْ وَلِيَ من أمر المسلمين شيئًا فولَّى رجلاً لمودَّة، أو قرابة بينهما. فقد خان الله

(١) فتح الباري، ج١٣، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعيته فلم ينصح، ص ١٢٧، وصحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

ورسـولـه والمسلمين». ويقـول ابن تيميـة تعليقًـا على هــذا الحديث: فيجب البحث عن المستحقين للـولايات من نـوابه على الأمصـار من الأمراء الـذين هم نواب ذي السلطـان والقضاة، ومن أمـراء الأجناد ومقـدمي العساكـر الصغار، وولاة الأمـوال من الـوزراء والكتـاب... إلـخ. وعلى كل واحـد من هـؤلاء أن يستنيب وأن يستعمل أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمـة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحج... إلخ.

فيجب على كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية.

فإن عدل عن الحق الأصلح إلى غيره لأجـل قرابة بينهما، أو ولاء صـداقة، أو موافقة في بلد، أو مـذهب وطريقه، أو جنس كالعربيـة أو الفارسية، أو التركية والرومية، أو الرشوة بأخذها من مال، أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه يكنه للأحق، أو عــداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهي عنـه في قولـه تعالى: ﴿**يا أيها الـذين آمنـوا لا تخونوا الله ورسـوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾[1]، صورة تطبيقية للمسؤولية. بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عن ما أدرك (من هذا الموضوع) فقال: أدركت عمـر بن عبد العـزيز فقيـل له: يـا أمير المؤمنين أفقرت أفـواه بيتك من هـذا، وتـركتهم فقراء ولا شيء لهم، فقـال: أدخلـوهم علي، فأدخلـوهم وهم بضعـة عشر ذكرًا ليس فيهم بـالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قـال: يا بني مـا منعتكم حقًّا هو لكـم، ولم أكن بالذي آخذ أموال النـاس فأدفعها إليكم، وإنما

(١) سورة الأنفال: ٢٧.

أنتم أحـــدُ رجلين، إما صالحٌ، فالله يتولى الصالحين، وإمّا غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين بـه على معصية الله قوموا عني. قـال: فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطاه ليغزو عليها». هذه بعض بركات وثمرات أمـانة المسؤولية، والعدل بين الرعية في الـدنيا، وأما الآخرة فأمرها إلى الغني الكريم، وإلى جنات النعيم.

وما أحـوج المسؤول أن يقف أمـام هذه الأحـاديث والآيات، وأمـام هذه القصة وقفة المتأمل البصير، والسعيد من وعظ بغيره.

وقد أكد رسول الله ﷺ على أن المسؤولية أمانة يجب أداؤها في مواطنها مثل ما تقدم. وروى البخـاري في صحيحه عن أبي هريرة قـال: قال رسول ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعـة، قيل: وما تضييع الأمانة؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله».

- قصة أخرى تمثل معاني الرعية:

دخل أبـو مسلم الخولاني على معاويـة فقال: السلام عليـك يا أيها الأجير، فقـالـوا: قل السـلام عليك أيها الأمير، فقـال: السـلام عليك أيها الأجير، فقالـوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال: السـلام عليك أيها الأجير. فقال معـاويـة: دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول، فقال: إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها. وكأنه يشير إلى حديث الرسول: «ما من راع يسترعيه الله على رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لها إلا حرّم الله عليه الجنة».

وهذا ظاهر في الاعتبار، فإن الخلق عباد الله، والولاة نواب الله على عباده، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر، ففيهم معنى الولاية والـوكالة! ثم الوالي والوكيل متى استناب في أمـوره رجلاً وترك من هو أصلح للتجارة، فقد خالف مفهوم الحديث [1].

(١) راجع كتاب: السياسـة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيـة، لأبي العباس أحمد ابن تيمية، القسم الأول، الولايات من ص ١٨ إلى ص ٢٤.

- فقه الحديث:

(١) وجوب النصيحة على الوالي لرعيته والاجتهاد في مصالحهم والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم.

(٢) وجوب تبليغ العلم قبل موت العالم لئلا يكون مضيعًا.

(٣) الوالي والوكيل متى استناب في أموره رجلاً وترك من هو أصلح للتجارة، أو العقار منه، أو باع السلعة بثمن، وهو يجد من يشتريها بخير من ذلك الثمن، فقد خان صاحبه [١].

- ما يستفاد من الحديث:

وقد دلت السنّة على أن الولاية أمانة يجب أداؤها، وإلى هذا يشير النبي ﷺ لأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ في الإمارة وأنها أمانة، وأنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها [٢].

الحديث يشير إلى أن الخلق عباد الله، والولاة نواب الله على عباده، وهم وكلاء. فينبغي على المسؤولين تحري الدقة والأمانة في اختيار الوكلاء والنواب، والاجتناب عن مفاهيم الفسق بقدر ما يستطيع المرءُ، والله الموفق.

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، ص ٢٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، ص ٢٠٨.

الحديث الثلاثون: عظم المسؤولية والأمانة

حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة. حدثنا وكيع بن الجرَّاح. حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عَدِيِّ بن عَمِيرَة الكِنْديِّ، قال: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: من استعملناه منكم على عمل، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فما فوقه، كان غُلُولا يأتي به يوم القيامة**». **قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه فقال: يا رسول الله! اقْبَلْ عني عَمَلَك. قال: «ومَا لَكَ؟». قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن. من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره. فما أُوتي منه أخذ. وما نُهِيَ عنه انتهى»**.

- تخريج الحديث:

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، كتاب الإمارة ـ باب تحريم هدايا العمال ـ ج٣٠، (١٨٣٣)، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج٨، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في أرزاق العمال، ج٢٩٤١، ٢٩٤٢، ٢٩٤٣، ص ١١٤، ١١٥. ج٩، كتاب القضاء، باب في هدايا العمال، ج ٣٥٧٦، ص ٣٦٠.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٤، ص ١٩٢.

- المعاني اللغوية:

غلّ غلاًّ في الشيء: أدخله غلاًّ في المفازة أي دخلها، الشيء أخذه في خفية ودسه في مقاعه، وغل الماء بين الأشجار أي جرى، وغل الغلالة أي لبسها، وغل يده: وضع يده أو عنقه في الغلِ. كتمنا مخْيطًا: بكسر الميم وإسكان الخاء وهو الإبرة.

- الراوي :

عدي بن عميرة الكندي صحابي معروف، يكنى أبا زرارة، له أحاديث في صحيح مسلم وغيره، روى عنه أخوه العرس وله صحبة.

- قصة إسلامه:

كان عدي ـ رضي الله عنه ـ يعيش بين قومه وقبيلته، وكان في تلك البقعة بعض أحبار اليهود يتحدثون عن النبوة والأنبياء، وكان من بين هؤلاء الأحبار حبر يهودي يعرف بابن شهلاء. فقال لعدي بن عميرة: إني أجد في كتاب الله أن أصحاب الفردوس قوم يعبدون ربهم على وجوههم. ثم أردف قائلاً: لا والله ما أعلم هذه الصفة إلا فينا معشر اليهود، وأحد بنيهم فلا يرى أنه يخرج إلا منا. قال عدي: «فوالله ما لبثنا حتى بلغنا أن رجلاً من بني هاشم قد تنبأ فذكرت حديث ابن شهلاء فخرجت إليه فإذا هو ومن معه يعبدون على وجوههم». فكان اختلاط عدي بن عميرة بأحبار اليهود والاستماع إلى حديثهم سببًا مباركًا لقبوله هذا الدين ولتشريفه بمبايعته للرسول ﷺ. وعاش فترة طيبة من الزمن.

- وفاته:

قال الواقدي: مات بالكوفة سنة أربعين، وقال أبو عروبة الحراني: كان عدي بن عميرة قد نزل الكوفة، ثم خرج بعد قتل عثمان إلى الجزيرة فمات بها[1].

- المعنى العام:

حين كان الإسلام يربي هذه الأمة المسلمة ويثبت الملامح الإسلامية

---

(١) كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، م٢، حرف العين، القسم الأول، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

الجديدة، بدأ بطمس ومحو ملامح الجاهلية، وهدم تقاليدها. قال معقل بن يسار الأنصاري في مرضه:

إني محدثك (لعبيد الله بن زياد) بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يلي أمر المسلمين لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة» (١). بهذه الطريقة خاض الإسلام بالمؤمنين معركة الإصلاح في مواجهة العادات السيئة الراسخة في النفوس والقلوب، ومن هذه العادات المكاسب المادية واستغلال المناصب، فعن معقل أيضًا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة». وهي معانٍ جديدة، وقيم سامية لم تعهدها البيئات القديمة، ولذلك كانوا يستصعبون تطبيقها، فوضح القرآن مهمة الرسل لهذه النفوس قائلاً: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**﴾ (٢). فلا يكفي لإيمانهم أن يتحاكموا إليه ليحسبوا مؤمنين فقط، بل لا بد أن يتلقوا حكمه بكل معاني الرضا والاستسلام، ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا**﴾ (٣).

وظل النبي ﷺ يغرس هذه المفاهيم في المناسبات، «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». والغلول هو ما أخذه المكلف ووضعه في متاعه، وأصل الغلول الخيانة مطلقًا، ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة. وكانت لهذه الكلمة القوية تأثيرها البالغ في نفوس المسؤولين نظرًا لحساسيتها وخطورتها. فقال رجل أسود من

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ـ باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق، ص ٢١٥.
(٢) سورة النساء: ٦٤.
(٣) سورة النساء: ٦٥.

الأنصار: يا رسول الله اقبل عني عملك، قال: وما لك، قال: سمعتك تقول كذا وكذا». وكأن الصحابي الأنصاري لم يكد يتصور كيف يتحمل هذه الأمانة، وقد تعودت البيئة على التساهل في أداء الأمانات، وشعر الصحابي الجليل أنه قد يضعف أمام هذه الأمانة. فأراد أن يرتاح، ولكن الرسول المربي استدرك قائلاً: «وما لك ؟»، وكأنه يستثير همته ويؤكد هذا المعنى ويطلب منه تغيير المفاهيم القديمة نحو الأمانة واستبدال المفاهيم القرآنية الربانية بها، وكأنه ﷺ يطلب من الأمة أن تتحمل هذه الأوامر وتلك التكاليف. فقال صراحة: وأنا أقوله الآن: «من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره». وإلى مثل هذا يشير القرآن: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ (١).

وقد عالج الإسلام مفاهيم الغلول معالجة شاملة، وفي مواقف متعددة؛ فعن أبى مسعود الأنصاري قال: «بعثني النبي ﷺ ساعيًا، ثم قال: انطلق أبا مسعود لا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاءٌ قد غَلَلْتَه قال: إذا لا أنطلق، قال: إذًا لا أكرهك» (٢).

ومن شمولية العلاج أن الإسلام أعطى للمسؤولين بعض الامتيازات الاقتصادية والأدبية ليسمو عن هذه الأمور. عن المستور بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، وإذا لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا، قال

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) مختصر سنن أبي داود، للمنذري، ص ٢٠٣، باب غلول الصدقة، ج٤. ط المكتبة الأثرية - باكستان.

أبـو بكـر: أخبرت أن النبي ﷺ قـال: «من اتخذ غير ذلك فهـو غـال أو سارق»(١).

والحديث لفتة تربوية جميلة في تربية الحاكم المسؤول تربية شاملة لتفهم معاني الأمانة وإدراك مسؤولية الحكم ومتطلباتـه، كما هو تربية لرفع مستوى الحاكم في الأمور الاقتصـادية والاجتماعية. ومحاولـة جميلة عن إبعاده عن وسـائل الإغراء، وسد أبواب المزالق، ورفع مقامه في نظر الناس ودرجته عند الله.

ومن هذه الوسائل التربوية أن الإسلام وضح الفرق بين الهدية والرشوة.

- بين الهدية والرشوة:

والهديـة للمسـؤول بـاب من أبـواب الغلـول، ولـذلك وقـف لها الإسـلام بالمرصاد. وعالج هذا الموضـوع وأزال اللبس والغبش. حدثنا هشام عن أبيه عن أبي حميد الساعـدي قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً مـن الأزد على صدقات بني سليم يدعى ابن الأتبية (ابن اللتبية)، فلما جاء حـاسبه قال: هذا مالكم، وهذا هـدية، فقال رسول ﷺ: «فهـلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى يأتيك هـديتك إن كنت صـادقًا، ثم خطبنـا، فحمـد الله وأثنى عليـه، ثم قال: أمـا بعـد، فإني أستعمل الـرجل منكم على العمل ممـا ولاني الله، فيأتي فيقـول هـذا مالكم، وهذا هـدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيـه هديته إن كان صادقًا. والله لا يأخذ منكم منهـا شيئًا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمل يـوم القيامـة، فلا أعـرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا لـه رُغاءً، أو بقـرة لها خـوار، أو شاه يتعر، ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت بصر عيني وسمع أذني» (٢).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠١، باب في أرزاق العمال.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، باب تحريم هدايا العمال، ص ٢٢٠.

هذه مواقف تـربوية مشهورة تبين مدى حرص الـرسول ﷺ على غرس القيم السـامية ومعـاني الأمانـة والإخـلاص في العمل، ومعاني الحرص على المصلحـة العامة ليبتعـد المسؤول عن الشبهات والمزالق ويكون نموذجًا يحتـذى به، ومثالاً يقتدي به الجمهور، وينظر إليه نظرة الاحترام والتقدير.

- ما يستفاد من الحديث:

١ - تـوجيه الـراعي لـرعـاياه أمـر طيب وعمل مفيـد يخدم المجتمع الإسـلامي ويرتقي بحكام المسلمين.

٢ - سـد بـاب الـذرائع وقطع السبل التي يـدخل منهـا الشيطـان على الـراعي لإفساد عمله وتحريم معيشته.

٣ - تهذيب النفوس والتـزام الصحابة بـالمنهج القويم أضـاء لهم الطريق وحقق لهم الغايات المنشودة.

٤ - ينفر الحديث من الخيانة ويبعد المسلم عن الشبهات.

- فقه الحديث:

١ - يوضح الحديث: أن هدايا العمالِ حرام وغلول؛ لأنه خان ولايته وأمانته كما يبين ﷺ السبب في تحريم الهديـة عليه وأنها بسبب الـولايـة بخلاف الهديـة لغير العامل، فإنها مستحسنة.

٢ - في هذا بيان أن هـدايا العمال سحت، وأنه ليس سبيلها سبيـل سائر الهدايا المبـاحة، وإنما يهدى إليـه للمحابـاة، وليخفف عن المهـدي ويسـوغ لـه بعض الـواجب عليـه، وهـو خيـانـة منـه، ونجس للحق الـواجب عليـه استيفاؤه لأهله (١).

---

(١) مختصر سنن أبي داود للمنذري، ج٤، ص ٢٠١، ٢٠٢، باب هدايا العمال.